صفقـــة ! . .

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

مثل المتهمان « مزار أزيدور برومنت » و« بروسبر نابليون كورتي » أمام محكمة جنايات « السين » لشروعهما عن عمد في قتل امرأة « برومنت » المتهم الأول ! ...

وزُجّ بهما في « قفص الاتهام » فراحا يقلبان نظرات حائرة ، ويرددان أنفاساً مضطربة ... وكان كلاهما من أهل الريف .

وبدا « برومنت » ربعة قصير الذراعين والساقين ... قاني الوجه مرصع الديباجتين بالبثور ... وقد التصق رأسه الأكبس[1] بجسده القمىء الكروي ... وما بينهما من عنق ... وكان يقطن مدينة « كاشفيل — لا — جوبل » في ولاية « كريكتوت » ويقتات رزقه من رعاية « الخنازير » وإنمائها ! ...

أما « كورتي » فرجل ضاوي الجسم غير فارع القوام ... يتدلى من كتفيه ذراعان مفرطان في الطول ... أشوه الوجه ، أضجم الشدقين ، أحول العينين ... يرفل في كساء أزرق كالقميص ، يطويه حتى الركبتين ... ويتسدل على جبينه العريض بعض شعيرات مصفرة اللون ، تخلع على وجهه سمات بغيضة تعافها النفس ويمجها البصر ...

وكان القوم يدعونه بالقس لما أوتيه من براعة في ترتيل الأناشيد بين جنبات الكنيسة ... حتى هام به بعض الناس ... في « كريكتوت » ، وذابوا إعجاباً به وشغفاً بتسابيحه إلى الله ! واستقرت في « منصة الشهادة » زوجة « برومنت » وهي فلاحة عجفاء بادية الهزال ... تكاد أن تخر من الوهن ، وتوشك أن تغرق في النوم ... كانت واجفة واجمة لا تحرك ساكناً ، وقد عقدت راحتيها في حجرها وراحت حدقتاها تدوران في بلاهة واضطراب ... وتجلت في صفحة وجهها آيات من الجمود ودلائل من الخمود ! ..

ابتدرها القاضي في صوت رفيق رقيق مستأنفاً مسعاه في التحقيق : — .

« لقد أدركت — أيتها السيدة الفاضلة — أنهما اقتحما دارك . ثم ألقيا بك في « البرميل » المترع بالماء ... فدعينا نسلم بجلية الأمر في إسهاب ... تكرمي بالوقوف » ...

فما إن همت قائمة ، حتى لاحت في قبعتها كعمود شاهق ، وطفقت تجأر بقصتها في صوت ترسله على مهل :

بينما كنت أقشر الفول ... دلفا من الباب معاً ... فحدثت نفسي « إن الشر يزمهر في عيونهما ... ما أقبلا إلا لسوء ، وما أضمرا سوى الغدر ... سأمسك حذري منهما » ومكثا يختلسان إلى نظرات شذراء ... وعلى الأخص « كورتي » الذي لا يفتأ يشوب الحول عينيه ... فأحسست لرآهما معاً بالكمد يخذني والحسرة تمضني فما كان أحدهما ممن يشرف المرء ويثير زهوه ! .

ولم ألبث أن قلت لها « ماذا وراءكما ؟ ! » فما نبس أحدهما ببنت شفه ، بل ظل سادراً في صمته ... مما دفع الريبة إلى قلبي ، وهاج الظنون في نفسي ! ... »

فصاح « برومنت » المتهم في حرد وجفاء :

— « لقد كنت أترنح وأنا سليب الوعي ! ... » فألقى « كورتي » بطرفه إلى شريكه في الإثم ، وقال له في صوت عميق كأنه عزيف الأرغن[1] :

— « ما كنت مجانفاً للحق ... لو قلت كلانا كان مترنحاً سليب الوعي ! ... »

فانتهره القاضي في عنف ودهشة :

— « أو تقولان أنكما كنتما تملين مخمورين ؟ ! ... »

برومنت — « وهل في ذلك من حرج ؟ ! ... »

كورتي — « إنه يقع لكل البشر ! . »

فكظم القاضي غيظه ، وهو يروم الشاهدة :

(١) رأس أكبس ... مستدير صغير . « ج »

(١) الأرغن آلة موسيقية لا تخلو منها الكنائس . « ج »

— « ناشدتك الله ... صلى ما انقطع من روايتك ... أيتها السيدة الفضلى ! . » فعادت المرأة تقول فى صوتها الأجش وهى ترسله فى تؤدة وعلى مهل :

— « ثم سألنى برومنت « هل لك فى خمسة فرنكات ؟! » فوافقته على سؤله ... لأنك لم تمر على خمسة فرنكات تحت كل أبكة تصادفها ... فما لبث أن قال لى « هلمى معى ... وسوف أريك ما تفعلين ! ... » ثم مضى حيناً ... وعاد يدفع أمامه « البرميل » الضخم الذى تتلقى فيه ماء المطر ... ثم أقامه فى وسط المطبخ ... وهو يقول « هلا تملئينه حتى الشفا بالماء »

فشمرت عن ساعد الجد ، ولم آل جهداً ساعة ، وأنا أسعى بالدلوين بينه وبين البحيرة أحمل مزيداً ومزيداً من الماء ... فقد كان من الضخامة ، حتى لكأنه بئر بعيد الغور ...

أما هذان الزنيمان « برومنت » و « كورنى » فقد مكثا طيلة الوقت يعبان فى الخمر ... ويملآن الكأس تلو الكأس .. حتى لم أتمالك أن صحت فيهما « لكأنكما أكثر امتلاء بالخمر من هذا البرميل .. » فأجابنى برومنت : لا تبالى بما نحن فيه .. وثابرى على عملك أنت .. فلسوف يحين دورك .. » فلم أعره سمعاً .. لأنى أعلم بما للخمر من عقبى تسل العقل من إدراكه ، وتمنع النفس صوابها .

حتى إذا فاض « البرميل » بالماء . قلت « يا هذا . لقد فرغت من عملى » فناولنى « كورنى » خمسة فرنكات — كورنى وليس برومنت يا صاحب السعادة .. إنه كورنى الذى منحنى أجرى .. ولكن لم يلبث « برومنت » أن قال : « هل لك فى خمسة فرنكات أخرى ! . » فقلت على الفور « نعم .. » حتى لا تفلت من أناملى هـــذه الفرصة الذهبية ... فانثنى يقول « هيا انزعى ثيابك ! ... » فصحت فيه وقد أخذتنى الدهشة والعجب « أنزع ثيابى ؟! . » فأجابنى « أجل » فسألته منكرة « أأمتضها كلها ؟ ! » فقال « إن كان هذا يثير انزعاجك ... فامسكى عليك قميصك ... إنا لا نبغى نزاعاً ... »

حسن ... خمسة فرنكات قدر لا يستهان به . فما على من بأس لو فادت هذين السفيهين . فرفعت قبعتى من فوق رأسى . ثم خلعت دثارى .. وسللت قمدى من النعلين ! . وحينئذ قال برومنت « ليس ثم داعى للخلاص من جواربك . . نحن قوم ورعون أولو تقى ! . » فهتف كورنى مرجماً « أجل . . نحن قوم ورعون أولو تقى ! . »

وهكذا قمت أمامهما على شبه من أمنا « حواء » ! . فهمنا من جلستهما ترنحهما الخمر . وهما لا يكادان يثبتان على أقدامهما . عفواً يا صاحب السعادة . . قلت لهما « وماذا بعد ؟ ! » فصاح برومنت « أو مستعد أنت ؟! » فأجابه كورنى « مستعد ! »

ثم لم يلبث « برومنت » إن أمسكنى من رأسى ، وقبض كورنى على قدمى ... كالشاة التى تهيأ لغسلها ! . فما أن همت بالصياح ، حتى زجرنى « برومنت » فى قسوة قائلاً « امسكى لسانك ... أيتها المرأة الوقحة ! . » ثم رفعانى فى الهواء ، وقذفا بى فى « البرميل » ... فسرت فى كيانى قشعريرة جعلت الدم يضطرب فى عروقى ويتصاعد دافقاً إلى رأسى ... فتصطك أسنانى وأحس الجمد يعتريني من ناصيتى حتى أخمصى ! . .

وسمعت برومنت يقول « ولكن رأسها ما برح لا يغمره الماء. إن هذا يدخل فى الحساب ! . » فرد عليه كورنى « ضع رأسها إذن تحت الماء ! . » فلم يلبث أن دفع رأسى فى البرميل كمن يعمد إلى إغراقى ... فاستشعرت الماء يتسرب إلى أنفى ... وتراءى كأنى أوشك أن اتخذ سبيلى إلى السماء ! . .

وما أنفك يدفعنى ... حتى غمرنى الماء ... ثم خالجه الخوف فجأة ، وساوره الندم ، وراودته الرحمة ... فعاد يرفعنى قائلاً :

— « هيا جففى جسدك ، واخصفى عليك ثيابك ... يا حقيرة من العظام ... »

فلم أكد أثوب إلى نفسى وأتمالك مشاعرى ... حتى أطلقت لساق الريح ، وهرعت إلى « راعى الكنيسة » ذلك الرجل الطيب القلب الكريم النفس الوفى الخلق ... فأعارنى دثاراً من ثياب خادمه ... وطفق يسرى عنى حتى أفرخ روعى ! . . ثم انطلق يدعو صاحب الشرطة والسيد « شيكوت » النائب ! . .

وعدنا أدراجنا جميعاً إلى الدار ... فألفينا برومنت وكورنى يتقاتلان كزوج من الكباش !.. وكان برومنت يزمجر والغضب يتقد فى عينيه « إن هذا وكس ... لقد أخبرتك أنها ليست دون « المتر الكعب » .. لقد أسأنا العمل وأخطأنا الوسيلة ! . »

فضيح كورنى فى حنق « بل أربعة من الدلاء المتلئة ... لا تبلغ نصف المتر المكعب ... إنها حقيقة ... لا تملك لها إنكاراً ولا تجد منها خلاصاً ! . . » فدنا منهما صاحب الشرطة ، وحال بينهما فى صرامة ... وما كنت أحير شيئاً ! . . »

وتهالكت السيدة على مقعدها ... فانفجرت فى قاعة المحكمة عاصفة من الضحك ... وتناظر المحلفون ، وقد رفت على ثغورهم ابتسامات تحفها الرزانة ... حتى إذا رانت السكينة وخيم الهدوء خاطب القاضى « كورنى » المتهم :

« يبدو أنك المحرض على هذه الكيدة التى تفيض شناعة وتدر خزياً . أو عندك من الدفاع ما تقدمه بين يدينا جلاء لما قارفته ! »

فهم « كورنى » على قدميه قائلا : « لقد كنا نملين تعبث برأسينا الخمر ! » فأجابه القاضى فى رصانة وهدوء « إنى أعلم هذا صل حديثك ! » — « مهلا ! ... سيواتيك مالا تعلم ... حسن ! لقد جاءنى « رومنت » فى تلك الصبيحة ، ودعانى إلى كأس من شراب « البراندى » ... فجلست إليه وأفرغته فى جوفى ... وحفزنى الأدب إلى أن أقابل فضله بمثله ... فدعوت له بكأس آخر ... فأجابنى بكأس ثالث ، فرددت عليه برابع . ودالت بيننا الخمر ودارت منا الرؤوس .. حتى انتصف ميزان النهار .. فإذا بنا نخوران نترنح من النشوة ! . . »

وطفق رومنت يجأر بالصياح . فخالجنى الأسف له وأحسست إشفاقاً عليه ! .. فسألته عن جلية أمره ! ... فقال « لابد لى من ألف فرنك قبل الثلاثاء ! . » فانطويت على نفسى . بالطبع . بيد أنه شك غير طويل ؛ ثم قال فى مثل هدوئك وشبه وقارك يا سيدى : « سأبيعك زوجتى ! . »

حسن ... كنت ذاهب الواعى عاطل الرشد ... وكانت زوجتى قد لبت داعى المنون . . فدار بخلدى — وهو مضطرب — أن من الخير أن استحوذ على امرأته . . ما كنت أدرى عنها شيئاً ... ولكن الزوجة دائماً هى الزوجة ... فانثنيت أسأله « وكيف تبيعها لى ؟! » فتطامن رأسه وهو يفكر ، أو لعله خلع على ذاته سمات التفكير ومظاهر التدبير . . قال : إذا عانق الصهباء .. تبلبلت فى ذهنه الآراء ، وعاثت فى جده الأدواء .

ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وانبسط جبينه وهو يقول :

« سأبيعها لك بالمتر المكعب ! . » فلم يأخذنى الدهش ، فما برحت نشوة الخمر تعربد بين جوانحى . . كما أنى استخدم المتر المكعب فى تجارتى ! ... إن المتر المكعب يقدر بألف لتر ... فوافقت هواه ، بيد أن العقبة التى تنهض فى سبيلنا .. هى الثمن ، وهو رهين بما يتمخض عنه عديد الأمتار . . وعن لى أن أسأله :

— « وكم تود فى المتر المكعب ؟! . »

— « ألفى فرنك ! . . »

فوثبت من مجلسى كأرنب مروع . . ولكن جال بخاطرى أن ليس ثم فى الوجود امرأة تجاوز فى الكيل ثلاثمئة لتر ! . . قلت له :

— « إنك على شـطط فيما عرضت ! . » فأجابنى وهو يهز رأسه :

— « لا آخذ دون ذلك .. فإنها لخسارة تفدحنى ! . »

كان يساومنى كأنه يبيعنى إحدى خنازيره ، وإنه لبارع قدير على بضاعته . . هه . . هه . . قلت له « : إن كانت شابة فتية فلسوف أعضى ولا أبالى . أما إن كانت أخت عجز لطول ما أبليتها وأخلقت جدتها .. فما أدفع فيها سوى ألفاً وخمسمائة المتر المكعب ولن تمس دانقاً مزيداً عليها أو ترضى ؟ » فارتفع صوته هادئاً رضيت ! . هيا نتصافح . . »

فهززت يده شداً على العهد . . وانطلقت متأبطاً ذراعه . . لا بد للانسان فى زحمة الحياة الشقية وموكبها الصاخب أن يمد يد العون لأخيه الإنسان ! .. بيد أنى ما لبثت أن أغرقت فى الحيرة وقاض بى الدهش !! . فانقلبت أسأله : « كيف تسمى لكيلها ؟ . وما هى بسائل ! .. لسوف يعيينا أمرها ! . »

فأبان لى عن خاطر ما كان يتجلى من عقل ثقلت عليه وطأة الخمر . وشاعت فى صفائه شوائب الثمل . قال : « سآتى ببرميل . وغلأه حتى يطفح منه الماء .. ثم نضعها فيه .. ونقدر ما ينسكب من الماء .. فهو جرمها . » فهتفت فى إعجاب : « إنه رأى سديد . وفكرة صائبة ! .. ولكن كيف نقدر ما ينسكب من الماء ، وما يتناثر من الرشاش ؟ . ولسنا له بحاصرين ! »

فرمانى بالغباء ، ودعانى بالسخف . وأخبرنى أن كل ما نفعله هو أن نملأ « البرميل » تارة أخرى . . بعد أن ننتشل امرأته ،

ثم نقدر ما نضيفه من الماء بعد ذلك ! . إن كان عشرة دلاء فإن نظيرها متر مكعب !. أه .. ليس ثم في الوجود امرؤ أحدّ ذكاء وأمضى فطنة من هذا اللئيم ، والخمر ناشبة في رأسه ، جاثمة على عقله ! ..

وصفوة القول ... اتخذنا سبيلنا إلى بيته . . فلما وقع طرفي على المرأة . . . رحت أحدق فيها وأنقضها ببصري في نظرات فاحصة . . . لم تكن على مسحة من الجمال . . . وها هي ذي أمامكم ... فانظروها .. وحدثت نفسي بـ .. « لا عليك ! . . . سواء نفيض ملاحة وتسيل قبحاً . فإنهن يؤدين جميعاً الغاية المنشودة ! ... » أليس كذلك يا صاحب السعادة ؟! ... كما أنها كانت عجفاء ضامرة الجسد كأنها العصا اليابسة . . فساورني خاطر « أنها لن تجاوز أربع لترات ! . . . » إني خبير بهذه الأمور ... فهي سر مهنتي ! ...

وقدمت لكم ما حدث .. لم أجردها من قميصها وجوربها ، لما تعمر به قلوبنا من الورع ، وما تزخر به نفوسنا من الحياء .. مع ما في ذلك من خسارة لي ... فلما بارحت « البرميل » . . . مرقت من بين أيدينا ، وأطلقت لساقيها العنان تسابق الريح ... فصحت مشدوهاً « وي ؟ ... رومنت ... إنها تفر منا ؟ ... » فأجابني في صوت هادىء : « لا تحفل بأمرها . . . فلسوف تنكص على عقبيها سريعاً .. فأمسك بها لك في هوادة ... دعنا نحسب النقص ! ... »

فلم تتجاوز الدلاء أربعاً .. ها .. ها .. ها ! .. »

وانطلق السجين في ضحك يهزه هزاً عنيفاً .. حتى ربت على ظهره جنديه الحارس في رفق . . . فتاب إلى هدوئه ووفاء إلى سكينته ، ثم استأنف حديثه :

« وصفوة القول .. لم تأت الأمور على ما يشتهي رومنت ، فتصايحنا ، ودوى صراخنا !.. ثم تمطلت لغة الكلام ، فأمسك كل منا بتلابيب الآخر يروم ضربه ، وطرحه على الأرض .. كنا سكارى . . . فحسبنا أن عراكنا سيدوم إلى يوم الحشر ! ... حتى فرق بيننا صاحب الشرطة .. وقبض على كل منا وزج به السجن .. وإني لأطالب بالتعويض عما لحقني ! . . »

وارتد « كورني » إلى مقعده . . فتهاوى عليه .. وكان « رومنت » يوعز برأسه بين العينة والعينة مؤيداً شريكه ... معززاً لما جرى على لسانه .

وغاب المحلفون ساعة يقلبون الرأي في روية ، ويهيئون الحكم عن سداد ... وقد اكتنفتهم الحيرة ... ثم أعلنوا الملأ براءة كلا السجينين ... ولكنهم قرنوا ذلك بحد ... هو أن الزواج رباط مقدس لا يبيح صفقات التجارة ، ولا يحل فيه البيع والشراء!

وانطلق « رومنت » إلى عش الزوجية ، وزوجته في رفقته ! وعاد « كورني » طليقاً إلى حانوته ! ..

(طنطا) مصطفى جميل مرسي

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ الزيات

نفدت الطبعة العاشرة من هذا الكتاب

أما الطبعة التي تباع الآن في البلاد العربية

فاحترس منهـــا

أنها طبعة مزيفة فيها النقص والخطأ والتحريف

والتشويه زيفها أمر الكتبيين في القاهرة

انتظر الطبعة الحادية عشرة قريبا

طبعة أنيقة صحيحة فيها زيادات كثيرة

ولاسيما في العصرين العباسي والحديث

سكك حديد الحكومة المصرية

تذاكر الاشتراك الكيلومترية

يتشرف المدير العام باعلان حضرات حاملى تذاكر الاشتراك الكيلومترية أنه فى حالة تأشير المحطة على اشتراكاتهم باعتماد السفر بقطار ما ثم طرأت بعـــد ذلك ظروف تدعو لتأجيل السفر إلى قطار آخر ففى هذه الحالة يتعين على حضراتهم تقديم اشتراكاتهم إلى موظف المصلحة المختص لتصحيح رقم القطار بالمداد الأحمر مع اعتماد التصحيح بتوقيع الموظف وبختم المحطة — أما إذا عدل المسافر كلية عن السفر فيلزم فى هـذه الحالة تقديم الاشتراك إلى موظف المحطة قبل قيام القطار لالغاء هذه السفرية بالمداد الأحمر مع اعتماد هذا التصحيح بتوقيع الموظف وبختم المحطة . والمرجو من حضرات المشتركين ملاحظة أن كل تصحيح أو إلغاء لسفرية ما غير معتمد بتوقيع موظف المحطة وغير مختوم بختم المحطة لا يلتفت إليه وتعتبر السفرية كأنها تمت فعلا .

مطبعة الرسالة